مقالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مهنة الطب في السودان: غابت الرعاية فكثر التزييف

في تصريحات صحفية سابقة لوزير الصحة بولاية الخرطوم؛ مأمون حميدة، قال إن ظاهرة الأطباء المزيفين بالولاية أصبحت في تزايد وأن عدد الأطباء الذين تم ضبطهم بولاية الخرطوم يتراوح عددهم ما بين ٣٠ – ٤٠ طبيباً مزيفاً وأن أعداداً من المرضى وقعوا فريسة لهؤلاء الأطباء المزيفين، وأن وزارته بالمرصاد لمتابعتهم وإنهاء هذه الظاهرة بالتعاون مع نيابة حماية المستهلك.

وقد تعرّض الكثير من المرضى للخداع والغش من قبل أطباء مزيفين في مناطق عدة من ولاية الخرطوم، ويبدو أنّ تجاهل السلطات لهذه الظاهرة قد شجع الكثيرين، على ارتكاب هذه المخالفات. وقد تحدث أحد ضحايا الأطباء المزيفين لـ (إرم نيوز) قائلاً: (إنهم سبق وأن تعرّضوا للحقن بما وصفه لهم المحتالون بمهنة الطب)، (الحقنة الشافية) و(السحرية) لعلاج كل الأمراض)، وقال الضحية: (إنّ عيادة الطبيب المزيف كانت تزدحم بالمرضى من كل الولايات، في انتظار المقابلة، وقد بلغ عدد المرضى المسجلين للكشف ١٧٧ مريضاً، من مختلف الأعمار متوهمين أنّ هذا الطبيب يعالج بحقنة واحدة "شافية")، مشيراً إلى أنّ عدداً من المرضى اضطرّوا للمبيت أمام العيادة ليتمكنوا من الحجز، وآخرون قالوا إنهم جاءوا مع وقت صلاة الصبح.

وقال أحد المرضى لـ"إرم نيوز" إنه كان يشكو من مرض الروماتيزم، وظل يراجع مع الطبيب منذ زمن، وبسؤال الطبيب اتضح أنه لا يحمل بطاقة طبيب أو مساعد طبي، وعندما سُئل عن الوصفة السحرية للحقنة، ومن أين أتى بها .. قال إنّ بها "بركة وجاء بها من الحرم المكي الشريف"، وبعدها تمت مصادرة الأدوية الموجودة في العيادة وإرسال الحقنة لمجلس الأدوية والسموم للكشف عن مكوناتها، كما تم ضبط أدوية تستخدم في التخدير الكامل وأدوية تساعد في حالات الولادة ويمكن استخدامها بصورة غير شرعية في الإجهاض، يذكر أنّ السلطات تمكنت من القبض على عدد من الأطباء المزيفين، إلا أنّ أكثرهم جدلاً كان الطبيب المزيف في مدينة عطبرة، الذي كانت كل مؤهلاته العلمية شهادة ابتدائية، قضى هذا الطبيب المزيف ٤ سنوات يمارس المهنة داخل المستشفى العمومي، ويشارك في إجراء عمليات جراحية في الكسور والحوادث.

وكانت السلطات الأمنية قد ضبطت أيضاً بمدينة الجنينة، بائع خضار يحمل شهادة بكالوريوس مزورة من جامعة الخرطوم كلية الصيدلة، وشهادة طبيب مزورة من جامعة جوبا كلية الطب.

إن التزييف أصبح ظاهرة عالمية منتشرة في كل شبر من الأرض، بل صارت توضع لها التشريعات وتعقد لها المؤتمرات وفي الجانب الطبي عقد قبل أيام مؤتمر عالمي في الإمارات لمكافحة التزييف، ولكن هل ستحل مشكلة

التزييف محليا وهي ذات أبعاد عالمية ناتجة من التبعية للنظام العالمي الذي هو أصل التزييف والتزوير والغش، مما يعني احتياج العالم لأفكار وقيم جديدة غير التي تحكمه والتي تأذى منها البشر؟

أليس تزييفاً للحقائق الرأسمالية المخادعة التي تحكم العالم اليوم؟ وهي تسلب الإنسان معظم حقوقه الاقتصادية والإنسانية وغيرها، وتبقيه على الدوام في قلق وغير واثق من شيء، تهدده البطالة والعوز، يعيش قرب خط الفقر أو دونه، مسلوب الحقوق الأساسية والضمانات الحياتية التي حققتها الأجيال بجهد قليل لا يوازي العناء في عالم اليوم، محروما من أية رعاية. كما تعيق الليبرالية قيام أحزاب سياسية ذات برامج اقتصادية واجتماعية وسياسية تمثل المصالح الحقيقية للجماهير وتمنع وصول هذه الأحزاب إلى الحكم، بل كل الوسط السياسى هو طائفية ومذهبية يقودها أبناء الطبقة الرأسمالية الحاكمة لمصلحتهم وضد مصالح الجماهير التي تهزج لهم و"تفديهم بالروح والدم"، أليس هذا تزييفاً للحقائق يقع العالم كله تحت وطأته!!

والجانب الطبي ضمن المجالات التي زاد فيها التزييف بأنواعه سواء أكان تزييف الدواء أو الأطباء المزيفين ويتم استغلال حاجة الناس للعلاج.

وفي السودان الذي هو ضمن منظومة الدول التابعة للنظام العالمي الرأسمالي الذي تخلى عن القيم والأخلاقيات وانتكس إلى معيشة الغاب كثرت مداهمة العيادات لتكشف النقاب عن الأطباء الذين لم يدرسوا الطب ولا حتي أي مهنة طبية، بل منهم من لم يكمل مرحلة الابتدائي كطبيب عطبرة الذي شارك في العديد من العمليات الجراحية!

إن التزييف في الأوراق الرسمية لهؤلاء الأطباء المزيفين ما كان ليتم لولا وجود منتسب للحكومة يلعب هذا الدور القذر مقابل المصلحة، أما الحكومة نفسها التي ينتسب لها فإنها لا ترقب في الناس إلا ولا ذمة، بل رتعت هي ما شاءت، وكل منتسبيها يغرقون في الفساد، قال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة].

ولهذا فالمسؤول الأول أمام الله هو الدولة، فهي من تولت أمر الناس وضيعتهم، ليتحكم فيهم ضعاف النفوس، والمسؤول الثاني هو الإعلام الذي يطبل للباطل بثمن بخس؛ دراهم معدودة بدلاً عن التقصي، وكشفه للناس ليتجنبوه، الإعلام الذي له أجندات خاصة ووسائل مختلفة، فهو يجول ويصول في أروقة التكييف والترويض والبتر والإخضاع والتزيين.. إن غياب الحقيقة والتضليل والإفك المتعمد – وإن طال أمده – سيأتي عليه يوم يدرك مدبروه أنهم قاموا بعملية انتحار مهني ليس له إلا هاوية سحيقة، قال ﷺ: «**بئس مطية الرجل زعموا**» [صحيح الجامع: ٢٨٤٦] .. يعني كلمة (زعموا) أراد به النهي عن التكلم بكلام يسمعه من غيره ولا يعلم صحته، ومن وسائل التضليل «الدعاية» التي هي في جوهرها عملية إقناع ممنهجة، وصارت ركنا ركينا من العملية الإعلامية، وتتبنى

بالأساس الظهور بمظهر الصدق وإخلاص النصح، حتى ولو كانت تبطن الشر، من أجل كسب ثقة المتلقي والاستحواذ على فكره، وتلك سنة إبليسية، كما قال تعالى في شأن الملعون مع آدم وحواء: ﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٢١] أي أقسم لهما بالله، وهو كاذب في هذا، وكما يقولون في الأمثال الشعبية: «الزن على الأذن أشد من السحر».

لقد أضحت الدعاية فناً له ثقله في العملية الإعلامية، وله قواعد وأسس تحكمه وتتحكم فيه، مدارها على محاولة كسب تعاطف الجمهور بأي وسيلة؛ شريفة كانت أم وضيعة، هذا مع مقومات أخرى مثل البساطة والتكرار لاختراق أذهان الناس، والولوج إلى ذاكرتهم التي لن تتذكر إلا ما استوعبته بسهولة وكثرة، مع استخدام الرموز وضرب الأمثلة، فالذاكرة البشرية يسهل أن تختزن، وأن تستدعي الصور ذات الدلالة المرتبطة بمخزون الذاكرة الموروثة أو المكتسبة وعبر وسائل الإعلام كثرة الدعاية الترويجية لهذه الممارسات التي لا ندرى كم من الناس مات بسببها.

سوف لن يدوم هذا الاعوجاج عن الحق حتى لو امتد أمده، فالمفسدون في الأرض تصيبهم دعوات أصحاب المظالم فليرتقبوا عذاب الله صباح مساء، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، والرأسمالية العالمية القائمة على المصلحة أهلها تلظوا بنارها، وهم يبحثون عن بديل، والبديل هو إسلامنا العظيم بعقيدته التي ينبثق عنها أرقى وأحسن نظام، عقيدته التي حكمت البشرية، وجعلت مفكرين غربيين لا حصر لهم يشهدون بأن فترة حكم الإسلام هي التي جلبت الاستقرار والتقدم والرقي لبني البشر.

ولحكومة الجور هذه نقول، أقمتم حكمكم الظالم على أشلاء الناس ومعاناتهم، ففقدتم الحاضنة الشعبية التي صببتم جل اهتمامكم لحشدها، فسينفضون من حولكم بوصول حكم راشد يقود الناس بصدق وإخلاص وصلاح، حكم على أساس عقيدة الناس الصادقة اليقينية التي تعالج كل تزييف، بعلاج من عند رب الأطباء؛ الذي خلق وأبرأ وأمر بالحق والعدل والإحسان، فتقصدتم ترك كل هذا الخير، فانتظروا دوركم، فالله لم يترك ملكا ظالماً، فأين فرعون وهامان وكسرى وقيصر. كل الفساد إلى زوال وإن طال أمده.

كتبته للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

غادة عبد الجبار – أم أواب